سماحة الشيخ

صالح بن محمد اللحيدان رحمه الله

إمام القضاء وعلم من أعلام الفتوى

بقلم تلميذه

أ.د. محمد بن فهد بن عبدالعزيز الفريح

أستاذ الفقه المقارن في المعهد العالي للقضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي المقال

الحمد لله على قضائه، والمنَّة له في أخذه وإعطائه، وأشهد ألا إله إلا الله المحسن لأوليائه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، جعلنا الله تحت لوائه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً مزيداً إلى دار جزائه أما بعد:

فهذه أشجان بثثتها، ومواقف ذكرتها، وذكريات سجَّلتها، وأحاديث قيَّدتها، ولولا البِرُّ ما نشرتها.

قال أبو داود رحمه الله: سمعت الإمام أحمد يقول: سمعت ابن عيينة يقول: تنزل الرحمة عند ذكر الصالحين.

ذكر أبوبكر المروذي رحمه الله لأبي عبد الله الإمام أحمد بن حنبل بعض الصالحين وصبرهم، فتغرغرت عينه، وقال: رحمهم الله، كان يقال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

وأحسب أن شيخنا الجليل صالح بن محمد اللحيدان رحمه الله من الصالحين اسماً ومعنى وحقيقة، وأن سيرته من أحق السِّير التي يُتأكَّد روايتها وتقييدها، ليرى الناس في هذا الزمان وما بعده مآثر عظيم من عظمائهم، وتباريح عالم من صالح علمائهم، أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحداً.

لم أحاول تقصِّي شيئاً من سيرته هنا، ولكن أردتُ الإلماح إلى جزءٍ يسيرٍ من علمه وعمله وصبره وكفاحه مما رأيته أو سمعته.

لذا ليعذرني من أمَّل في هذه الأحرف شيئاً لم أحقِّقه له، فإن تخييب الأمل لمن قصدك في خيرٍ له مصيبة! حتى قال سفيان الثوري رحمه الله:(أي مصيبة أعظم من أن يُؤمِّل فيك رجل خيراً، فلا يصيبه عندك)!

وأرجو الله الكريم الرحمن أن يحيينا جميعاً على الإسلام والسنة، وأن يرحمنا ويرحم شيخنا، فقد فقدناه، وكيف لا يُفْقد مَنْ كان بحراً عَذْباً، وماءً فُراتاً، مضتْ مجالسُه غُرًّا محجَّلة ... والله المستعان ...

وإلى أحرف المقال...

سماحة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان رحمه الله

تخُرِّمَ الصالحونَ المُقتَدى بهمُ *** وَقامَ منهُم مقامَ المُبتَدا الخَبَرُ

فَلَستَ تَسمَعُ إِلَّا كان ثمَّ مَضى *** وَيَلحَقُ الفارِطُ الباقي كما غَبَروا

وا حرَّ قلباه من فَقْدِ العلماء! وموت ورثة الأنبياء، إن ذهابهم لموجع، وموتهم قاضٌ للمضجع، وما زال الناس في نقص، والنقص قد يكون عاماً، وهو بلاء وابتلاء، قال الله تعالى:(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)، فإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

أكتب هذه الأحرف بعد وفاة القدوة: العالم العامل، والشيخ العابد، والنَّسَّابة الفرضي، إمام القضاء ورمزه في وقته، وعالم القضاة وشيخهم في زمنه، الفصيح لساناً، والثابت جناناً، والأب حناناً، والمهاب جناباً، والراسخ علماً، والمُقدَّم حقاً، وأحد الأعلام صدقاً، أصيل الحِجى

مُستَحكِم الرأي ناصعه، من عزَّ مثيله، وقلَّ نظيره، فاض عقلاً ومعرفة واتزاناً، وفاق غيره عزة وشموخاً ومجداً، سماحة شيخنا العلامة صالح ابن محمد اللحيدان رحمه الله، وغفر له، ورفع نُزُله ومنزلته في الجنة، وأخلف علينا خيراً، كان حامل راية القضاء بِكَلِّها، وفارس ميادين الأقضية كُلِّها، اشتهر بالعلم الغزير، والفضل الكثير، والذكاء المفرط، وتصدَّى للإفادة، وجلس للتعليم وبثِّ السنة، شاع ذكرُه في الأقطار، واشتهر اسمه في الأمصار، أحسبه العالم المبارك أينما حلَّ، والشيخ المُنْتَفَع به أينما نزل، درَّس في الحلِّ والحرم، وألقى الكلمات، وعقد الندوات، وأقام المحاضرات، وأجاب عن الفتاوى والإشكالات، وله في جانب الفتوى شأن كبير، فهو من أوائل علمائنا الذين خرجوا في التلفاز للفتوى، وأقول: لو جمُعِتْ فتاويه رحمه الله لكانت في آلاف الصفحات، فكيف لو ضُمَّتْ مع محاضراته وشروحه وتعليقاته؟ حقيقة إنه جهد عظيم لا يقوم به إلا نوادر الرجال، هذا كله مع ثقل أعباء القضاء ومجلسه، وتكاثر الأشغال العظيمة وتنوعها عليه، ومع تلك المهام، وعظيم ما هو فيه من مقام، حوى على دينٍ متين، وعبادة

ظاهرة، وتواضع جم، وخلطة للناس نافعة، مع صبر عليهم واحتمال لجاهلهم، وإحسانٍ كثير وكبير إلى المساكين والفقراء وأهل الحاجة، واتباع للسنة في جميع أحواله فيما أحسبه والله حسيبه، مع ما جعله الله من كونه مستودع الرأي والمشورة للملوك والعلماء والأمراء والوزراء فمن دونهم، فهو محل الثقة عند الجميع، فرأيه مقدم، واستشارته مغنم، كم دفع الله برأيه من فتن، وحقق من مصالح، ذكر مرة أنه لم يُحجب عن ملك من عهد الملك فيصل رحمه الله إلى اللحظة التي حدثني فيها، وأظنه قال: إلا مرة.

كان رحمه الله قدوة في عمله والقيام به إلى أن ترك رئاسة المجلس الأعلى للقضاء، فقد ذكر رحمه الله أنه لم يكن يتمتع بإجازة طيلة حياته العملية الماضية إلا مرة أخذ شهراً فقط، كما لم يكن يتمتع بإجازات خاصة، بل قال رحمه الله: من فضل الله عليَّ وعلى العمل أنني لم أتغيب عن العمل لمرض إلا مرتين.

بل رأيته رحمه الله أكثر من مرة تَعْرِضُ له بعض الأمراض التي لو نزلتْ بغيره لبادر بأخذ إجازة ونقاهة، أما هو فكان يتجلّد ويذهب إلى العمل.

عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ ... وَتَأتي عَلى قَدرِ الكِرامِ المَكارِمُ

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها ... وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

مكثتُ ما يقارب أربع سنين أتردد على المجلس الأعلى للقضاء طالباً الإعفاء من منصب القضاء، وكنتُ آتي غالباً الساعة السابعة والنصف فأجد سماحته في مكتبه، وربما أتيتُ قبل هذا الوقت فإما أجده في مكتبه وإلا أدركته وهو ينزل من سيارته، فيخرج مفتاح مكتبه من جيبه ليفتح الباب بيده، وأذكر أول مرة دخلتُ عليه في المكتب استغربتُ كثيراً من كثرة المعاملات، وبعضها من كثرة أوراقها ومستنداتها قد وضعت في أكياس على مكتبه حتى ربما غطّت من وراءها، سوى تلك الأكياس الموضوعة بجوار الطاولة!

كنتُ أتأمل حينها متى يقرأ كتب العلم؟ متى يراجعها؟ كيف يلقي المحاضرات والدروس؟ كيف يجد الوقت ومتى؟ أسئلة دارت في الذهن تدلُّك على شاهد من عشرات الشواهد والأدلة أمام عينيك أن الإعانة والبركة والتوفيق والتسديد من الله وحده، فاللهم لا تحرمنا فضلك.

كان الشيخ رحمه الله مع الأذان أو قبله يخرج من مكتبه متوجهاً إلى المسجد، لا يقول: بقيت معاملة أوقعها، أو ورقة أقرأها، لا! بل الصلاة قد نادى مناديها، فيترك مكتبه متوجهاً إلى المسجد، ومنذ عرفتُ سماحته من أكثر من عشرين سنة وهذه عادته، قلَّ أن يؤذن إلا وهو في مصلاه خلف الإمام بل إني أقف أحياناً خارج المسجد، فإن لم أره من نافذة المسجد بعد الأذان في مكانه المعهود عرفت أنه غير موجود .

كان قلبه معلق بالمساجد يحمل نفسه ويلزم جسده المنهك بالمرض على شهود صلاة الجماعة في المسجد! ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بل يبادر إليها مع الأذان، فكم مرة رأيته بين بعض أبنائه جزاهم الله خيرًا

يهادى حتى يقام في محله من الصف قبل أن يجلس بعد ذلك على العربة، عنده تجلى لي قول أبي الطيب:

وإذَا كانَتِ النُّفُوسُ كِبَارَاً ... تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وقول الرضي:

ولكل جسم في النحول بلية ... وبلاء جسمي من تفاوت همتي

قال ابن الجوزي رحمه الله: (مَا ابْتُلِيَ الإنسان قَطُّ بأعظمَ من علو همته. فإنَّ مَنْ علت همتُهُ يختار المعالي).

لقد كان شيخنا رحمه الله رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَرى ... وَهامَةُ هِمَّتِهِ في الثُرَيَّا.

ومنذ عرفتُ سماحته رحمه الله وهو يصلي أربع ركعات بسلامين بعد صلاة العشاء حتى أثقله المرض جداً، فلم أسأله عنها؛ لأني لما سألتُ شيخنا العلامة عبدالله ابن غديان عن كثرة صلاته في مكتبه أحياناً بعد صلاة الظهر، قال: هذه بيني وبين ربي! فعرفتُ أني لم أحسن عرض السؤال؛ إذ أردتُ منه دلالتي على فضلها أو تنبيه منه على شيء حولها،

وأنا أقول الآن: ما أغفلنا -والله- عن العبادة بين الظهر والعصر! خاصة نافلة الصلاة، فقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يحيي ما بين الظهر والعصر، بل جاء عن بعض السلف تشبيه الصلاة بين الظهر والعصر بصلاة الليل.

المهم أني لما رأيتُ شيخنا يصلي أربع ركعات بعد العشاء لم أتعجَّل بسؤاله كما فعلتُ مع شيخنا الغديان رحمهما الله بل بحثتُ فوجدت خيراً عظيماً كنتُ غافلاً عنه! فقد جاء عن أمِّنا عائشة وابن مسعود وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهم وعن غيرهم أنه من صلى أربعاً بعد العشاء كنَّ كَقَدْرِهِنَّ من ليلة القدر.

وكان سماحته محافظاً على قيام الليل، فقد يسر الله لي عام ١٤٢٧ أن أحجَّ مع سماحته، فكنتُ أتنقل بين المشاعر في ركبه، وأبيتُ في مخيمه، ومما أذكره هنا أننا وصلنا إلى مزدلفة في حدود الساعة الثامنة، ووجَّه سماحتُه ابنَه الزميل الكريم الدكتور الشيخ فهد أن يُؤذن، وقال له ممازِحاً: لا تقل"الصلاة خير من النوم"! فإنك تؤذن للمغرب، وكان من توقير الدكتور فهد وتقديره أنه لا يقيم الصلاة حتى يأذن له

سماحة والده مع أن الجميع بما فيهم الشيخ قد اصطفوا للصلاة، والشيخ أمام المصلين وجرت العادة أن تقام الصلاة، ومع ذلك لم يقمها حتى أَذِنَ له والده، وبعد الصلاة قام الشيخ يصلي السنة الراتبة، ثم أُتي بالقهوة، ثم العَشاء، وبعده جلس كل واحد مِنَّا على فراشه وحوله من حوله من أصحابه، ثم رأيت الشيخ بعد مدة قائماً يصلي فصلى قرابة أحد عشر ركعة ثم خلد إلى النوم على جنبه الأيمن، وقبيل الفجر استيقظتُ، فإذا بأكثر الإخوة مازالوا نائمين، ورأيتُ الشيخ لتوه مستيقظ، ثم خرج من مكاننا فتبعته، فقصد دورات المياه بمشعر مزدلفة، وكان الناس يتوافدون عليها ولمَّا يكثروا بعد، وكنتُ أرقب سماحته ولم يرني، فكان يضع طرف إحرامه على فيه، وكان ينتظر دوره في دخول دورات المياه! وكان قبله حاج من بلاد الهند واصطف خلفه حاج من شرق آسيا، منظر أذهلني، فهذا الذي بينهما من أكبر علماء العصر، وله المكانة العالية والرتبة الرفيعة، وسيكون بعد ساعات من الآن إن مد الله في الأعمار عن يسار ملك من أعظم الملوك والحكام في زمانه "خادم الحرمين الشريفين"؛ لتهنئته بعيد الأضحى

-رحم الله ولاة أمرنا وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء-، وكذلك فعل سماحته في مكان الوضوء فقد قام ينتظر دوره! وهو رئيس مجلس الأعلى للقضاء، ومن أكبر وأجلِّ العلماء في زمانه، ولو أراد أن يكون له مكاناً خاصاً لاستطاع بما أُوتي من منصب وجاه عظيمين، لكن هذه هي سمة علماء السنة، وكما قال أحد أئمة السلف حين زوحم على الماء مع الناس: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدْرَه، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله.

وكان زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله إذا سار على بغلته في سِكَكِ المدينة لم يقل لأحد: الطريق، وكان يقول: الطريق مشترك ليس لي أن أُنَحِّيَ عنه أحداً ! وهو من هو في الرتبة والمنزلة حتى شَرُفَ الفرزدق بمدحه في القصيدة المشهورة:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمُ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

ذكَّرني هذا الأثر عن زين العابدين بما فعله أحد الشباب إذ كان يطوف بالكعبة، فرأى سماحةَ الشيخ صالح اللحيدان رحمه الله خلفه في الطواف، فأفسح الشاب المجال وقال: تفضل يا شيخ، فنظر إليه الشيخ قائلاً: كلنا يا ولدي في هذا المقام والمكان على رتبة واحدة تقبل الله منا جميعاً.

خرجتُ معه مرة من المجلس الأعلى للقضاء إلى صلاة الظهر وبعد الصلاة والخروج من المسجد قرَّب أحدهم الحذاء إليه، فنظر الشيخ إليه نظر الغضبان، وقال له: لا تفعلها مرة أخرى.

عوداً على بدء رجع الشيخ بعد أن توضأ إلى مكاننا في مزدلفة ثم بعد ذلك صلى بنا صلاة الفجر وبعدها بقليل وقبل الانصراف من مكان صلاتنا قال رحمه الله: أسأل الله أن لا يجعل هذه الفريضة في هذا اليوم آخر العهد بهذا المكان، وأن يعيدنا إلى هذه الأماكن ونحن في صحة وإيمان وسلامة، وبلادنا في أمن ورغد عيش.

كان رحمه الله من أصبر العلماء على التدريس في الحرم كم رأيته على كرسيه في صحن الكعبة بجوار بئر زمزم يعلِّم الناس ويجيب عن أسئلتهم حتى غدا نجم الحرم الأول في التدريس كما قاله الشيخ سعد الحصين رحمه الله، وكان يطوف سبعاً قبل أذان المغرب ثم يتوجه إلى كرسي التدريس فيصله قبل الأذان.

وفي العشر الأواخر من رمضان كان يصلي التراويح ثم يلقي الدرس لمدة ساعة قد تزيد مع الإجابة عن الأسئلة ثم يصلي صلاة القيام ثم يلقي درساً بعد الفجر وهو قد تجاوز السبعين من عمره رحمه الله، كنتُ أتعجب، كيف يصبر هذا الصبر العظيم؟!

بل لا أنسى مرة أنه في العشر الأواخر ألقى درساً بعد التراويح، ثم بعد صلاة الفجر استمر في الإلقاء حتى قطعه قول المؤذن: صلاة الاستسقاء رحمكم الله، جَلَدٌ عجيب، وصبر منقطع النظير، كل ذلك لنفع الناس وتبصيرهم في دينهم.

كم من مرة رأيته يضع رأسه على لاقط الصوت، وربما أغمض عينه حتى ينتهي القارئ من إلقاء السؤال، فيرفع شيخنا رأسه ويجيب عن السؤال، وربما طُرِحَ سؤال فيه ما فيه، فيقول الشيخ -الذي هو بصير بالأكَمَة وما وراءها-: هذا سؤال حق أُريد به باطل! فلا يجيب عليه، ويطلب السؤال الذي بعده.

كَلِماتُهُ قُضُبٌ وَهُنَّ فَواصِلُ ... كلُّ الضَّرائِبِ تحتُهنَّ مَفاصِلُ

وقد أخبر عن نفسه رحمه الله أنه من عام ١٣٨٠هـ وهو مكلف بالفتيا في الحرم في موسم الحج، وقد كلَّفه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله وعشرين آخرين من أهل العلم للتدريس في الحرم موسم الحج بأكمله، واستمر خمسين سنة في التدريس في موسم الحج، وفي عام ١٤٠٤هـ كُلِّف بدروس الحرم في رمضان وما بعده والحج.

وقد كنتُ أحرص أن أكون قريباً منه في درس الحرم، فمرة كنتُ بقرب كرسيه، وصليتُ بجواره، وكان ذلك في عطلة الصيف، وكانت أمامه مَهفَّة، فكان يهف بها الهواء على نفسه ثم يهف بها على من يمينه وعلى

من يساره قبل صلاة المغرب وبعدها، وبعد صلاة العشاء، وأذكر أن بجواري في إحدى المرات رجلاً بديناً سميناً، فكان الشيخ إذا حرَّك المهفة فوصل جهة هذا الرجل أطال الهفَّ قليلاً، فأقول في نفسي: يا الله ما أعظم هذا الشيخ! ثم أدعو الله أن يحفظه ويمتعنا بوجوده، وها أنا أدعو الله أن يبرد مضجعه، ويرفع منزلته، فاللهم لطفاً به.

لم يَرحَلوا عن حِمَى أرضٍ إذا نزَلوا ** إلا وأبقَوْا بِها مِن جودِهم أثَرَا

تَبقَى صَنائعُهم في الأرضِ بعدَهمُ ... والغَيثُ إن سارَ أبقَى بعدَهُ الزَّهَرَا

كان رحمه الله كثير الصدقة لا أحصي عدد ما رأيته يعطي السائلين عند باب المسجد، وكلما رآهم الشيخ أخرج من جيبه نقوداً غالباً من فئات الخمسين والمائة ويضعها بيده في يد السائل، فإن لم يكن معه شيء أخذ من ابنه الذي بجواره، ولم أره مرة واحدة تجاوز سائلاً فلم يعطه شيئاً.

بل مرة أحد الإخوة أعرفه كان واقفاً عند باب المسجد ينتظر الشيخ ليسأله عن شيء وكان بجواره بعض السائلين فلما رآهم الشيخ أخرج

النقود وصار يوزعها بينهم حتى وصل إلى الأخ ومدَّ الشيخ إليه مبلغاً من المال! فارتبك الأخ، فقال: لا يا شيخ أنا سائل، فقال الشيخ: سائل علم أو سائل مال؟ فقال: بل علم. فانفرد به الشيخ حتى أجاب عن أسئلته.

ومما أذكره أن من رُشِّح للقضاء ربما تمر عليه فترة طويلة حتى يصدر قرار تعيينه، و ربما ألحق التأخر في صدور القرار ببعض المشايخ شيئاً من لوازم الدنيا بل ربما عَضَّهم الدهرُ بنابه، فكان سماحته يكتب لمن جاءه مخبراً عن حاله مبلغاً مجزياً من حسابه الخاص، معونة منه لأبنائه المرشحين للقضاء.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعَتْنا يا جرير المجامعُ

كان رحمه الله ليِّن العريكة، محتْمِلاً لجهل الجاهل، سهل الجانب مع ما أعطاه الله من هيبة ضاربة، وحزم ظاهر، كم رأيته في المسجد وفي الشارع الذي بجوار بيته يقف حتى ينتهي المستفتي من سؤاله كبيراً كان السائل أو صغيراً، بل لا أنسى مرة وهو يشرح لنا كتاب العدة في شرح

العمدة دخل طفل المسجد من الباب الشمالي وعمره يقارب ستاً من السنين فجاء إلى جوار سماحته من جهة اليسار مادًّا يده فلم ينتبه له الشيخ؛ إذ الصبي ليس في محل الرؤية من الشيخ وكان سماحته مستغرقاً في الشرح والتعليق، فلم يصبر الصبي فتقدم قليلاً وضرب بيده على ذراع الشيخ فالتفت الشيخ إليه، فمدَّ الصبي يده إلى الشيخ مسلِّماً فصافحه الشيخ والابتسامة تعلو محياه ثم أكمل الدرس رحمه الله.

كان رحمه الله راسخ المبدأ، صادق العزم، حسن السيرة، رفيع الهمة، كامل المروءة، لما أصابت مصيبة الموت أحد جيرانه عزَّاهم في ميتهم، وقال لهم: سيأتيكم الطعام، وجاءهم الطعام بما كفى الرجال والنساء وزيادة.

كان رحمه الله واسع الاطلاع عميق العلم والمعرفة، يحفظ من أشعار العرب وقصصهم ما لم أسمعه من غيره.

أذكر مرة في مجلسه بالمنزل جاء ذكر المُعَزِّبة يعنون بها الزوجة، فقال الشيخ: بعضهم يظن أن لفظة (المعزبة) التي تطلق على الزوجة لفظة حديثة مع أن الشاعر زهير بن جناب الكلبي سيد قضاعة وشاعرها قبل الإسلام يقول:

ألا يا لقومي لا أرى النَّجم طالعاً ... ولا الشمس إلا حاجبي بيميني

مُعَزِّبَتي عند القفا بعمودها ... يكون نكيري أن أقولَ ذريني

كان شيخنا رحمه الله من أجمل علمائنا الكبار استشهاداً بالشعر في موضعه، وكان يذكر أبيات شعر لم أسمع أحسن منه في توظيفها، وبعض تلك الأبيات لم أعرفها من قبل، فمن تلك الأبيات؛ قول أبي العيناء:

إذا رَضِيَتْ عنّي كِرامُ عَشيرَتي ... فلا زالَ غَضْباناً عليَّ لِئامُها

وكذا من جميل استشهاده رحمه الله:

أَبْصِر لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَن عَلَا زَلَقًا عَنْ غِرَّةٍ زَلجَا

وأذكر لما تطاول بعض الأوغاد على شريعة الإسلام سئل الشيخ في إحدى المحاضرات عن ذلك، فقال رحمه الله في نهاية الإجابة: وأسأل الله أن يحقق فيهم قول الشاعر:

ضَفَادِعُ فِي ظَلْمَاءِ لَيْلٍ تجَاوَبَتْ ... فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحْرِ

إلى غير ذلك من الأبيات التي لم أسمع من يتمثل بها ويحسن وضعها في محلها.

ولما ألقى أحد المشايخ كلمة عند خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله وجعله ذخراً للإسلام وأهله عام ١٤٣٦هـ ذكر قول الشاعر:

أُولئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَى ... وإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

فلما سلَّم الملقي بعد ذلك على الشيخ صالح اللحيدان شكره الشيخ على حسن كلمته وفصاحته فيها، ثم قال له: أَحْسَنُوا الْبُنَى، منبهاً إلى أن هذا هو الأصح إن لم يكن هو الصحيح.

وأذكر مرة كنتُ نازلاً من درج الدور الأول الذي فيه قسم شؤون القضاة في مجلس القضاء الأعلى بالمبنى القديم "وهو عبارة عن قصر قد بُني من سنين في حي المعذر"، وصادفتُ سماحته خارجاً بمعاملات كان يحملها بيده من مكتب زميله وصاحبه وصديقه الشيخ محمد بن سليمان البدر رحمهما الله، وكنتُ أتردد على المجلس لطلب الإعفاء من القضاء، فلما رآني وقف جزاه الله خيراً حتى وصلته -فجاء مدير مكتبه وأخذ المعاملات- فسلَّمتُ على سماحته وقبَّلتُ رأسه، وقلت: يا سماحة شيخنا أعفني عفا الله عنك، فقال: عليك بقول أبي فراس:

صبورٌ على طيِ الزمانِ ونشرهِ ... و إنْ ظهرتْ للدهرِ فيَّ ندوبُ

ثم قال: يا شيخ محمد اعْمَلْ بقول الشافعي رحمه الله: وكن رجلًا على الأهوال جلدًا، فقلت: أبشر شيخنا لكن في غير القضاء.

كان رحمه الله يكرر بعض الأبيات في اللقاءات لما فيها من النصح خاصة ما يتعلق بحفظ اللسان، وهي:

إذا رمْتَ أن تحيا سليماً من الأذى ... ودينك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلك عورات وللناس ألسُن

وعيناك إن أبدتْ إليك معايباً ... فدعها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... ودافع ولكن بالتي هي أحسن

وكان إذا انتهى من بعض المحاضرات قال متواضعاً: لعلكم لم تسمعوا جديداً، وإنما هو تأكيد على ما تعرفونه، وهل العلم إلا ما تواطئت عليه الألسن، وكما قال الأول:

ما أرانا نقول إلا معاراً ... أو معاداً من قولنا مكروراً

كان رحمه الله حريصاً على السنة عملاً وتطبيقاً وتعليماً ونشراً، ومما حدثني به رحمه الله أنه شرح الكتب الستة وموطأ الإمام مالك، فسألته: أين شرحتم ذلك شيخنا؟ فقال: في مسجد الإمام عبدالرحمن الفيصل بشارع الوزير حين كنتُ إمام المسجد، وقد كان الشرح من عام ١٣٨١ إلى ١٣٩٥هـ، وشرحتُ مسند الإمام أحمد بترتيب الساعاتي بعد

انتقالي إلى حي الروضة، فقلت: هل تقرؤون سند الحديث؟ قال: نعم أقرأ السند وأعلق عليه تعليقاً خفيفاً، وأتكلم عن معاني الحديث.

ثم أهدى إليَّ رحمه الله كتاب التعليقات السلفية على سنن النسائي لأبي الطيب محمد عطاء الله الفوجياني، وكان الشيخ قد كتب له تقديماً، وذكر الشيخ في تقديمه أنه اقتنى الكتاب عام ١٣٨١هـ، وأنه انتفع به وقت شرحه لسنن النسائي، وتمنى لو يطبع طباعة جيدة، فطبع بعد ذلك بتقديمه رحمه الله.

ومن وصاياه رحمه الله قوله:(وإني بهذه المناسبة أحثُّ طلاب العلم على العناية بالحديث وتفهم معانيه ومراجعة شروحه وتتبع ألفاظه من مختلف رواياته، وعدم الاكتفاء والاجتزاء بالمختصرات ما أمكن الوصول إلى المطولات لما في مطولات الشروح من البسط والوضوح وإبراز فضل العلم وإظهار مزاياه والدلالة على تفاوت أصنافه في الفضل؛ فإن فضل العلم تبع فضل المعلوم، وأفضل العلوم علم القرآن والسنة، فحري بطالب العلم غير المتخصص أن يكون له نصيب من ذلك، فضلًا عن المتخصص بهذه العلوم، إذ يُطلب منه بذل

الوسع والتقصي بما يمكن، لا سيما وقد يسر الله سبحانه أسباب انتشال المدفون من أمهات الكتب ومطولات الشروح).

كان رحمه الله أمَّاراً بالمعروف، نهَّاءً عن المنكر، قوَّالاً للحق، محذِّراً من البدع وأهلها، ومن الانحلال والعلمنة ودعاتها، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يداري ولا يداهن، يعرف الفضل لأهله، ويقدر الناس، ويُنْزِل كلاً منزلته، صاحب مقامات مشهورة، ووقفات ظاهرة، وعزمات نافعة، أعطاه الله الشجاعة وقوة القلب.

هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ ... شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَانِ

قال المقولة المشهورة: (لي في القضاء وهيئة كبار العلماء أكثر من ثلاثين سنة، والله ما أمرنا في يوم أن نفتي بما يوافق هوى أحد، وإنما نفتي بما نراه الحق).

جمع رحمه الله: العلم، والدين، والشجاعة، والكرم، وهذه أمهات الفضائل كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله.

كان رحمه الله رئيس وفدٍ بعضوية كل من فضيلة الشيخ أبي بكر محمود جومي كبير قضاة نيجيريا وعضو الرابطة، وفضيلة الشيخ أحمد الحماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر وعضو الرابطة ، وفضيلة الشيخ علي مختار الأمين العام المساعد للمجلس الأعلى العالمي للمساجد، لمناصحة العقيد معمر القذافي حول ما انتشر عنه من إنكار السنة النبوية في أن تكون مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي وكان ذلك في شهر صفر ١٣٩٩هـ.

كان رحمه الله فيما أحسبه والله حسيبه يؤثر رضوان الله، وخدمة الإسلام، وإعزاز أمته، قد بذل نصحه للراعي والرعية، وانتفع به المسلمون.

وكان رحمه الله دائم الدعاء لهذه البلاد المباركة، كثير الثناء على ولاتها وحكامها، لم يتغير في وفائه وصدق محبته لبلاده وولاة الأمر لعوارض عرضت، ولا لأحداث مرت، بل كان رحمه الله في نهاية كل درس ومحاضرة يكثر الدعاء للمسلمين ولبلادهم عموماً ثم يخص هذه البلاد "المملكة العربية السعودية" بدعاء خاص، ويكثر من الدعاء

لولاة الأمر فيها، وكان لا يفوت الفرصة إذا سنحت في ذكر مناقبها وفضلها وما اختصها الله به في هذه الأزمنة المتأخرة من القيام بالتوحيد والسنة مع أمن ظاهر وخير كثير، وحدثنا مرة بالدرس أنهم خرجوا من حفر الباطن إلى الرياض وقد نسيتُ تفاصيل ما ذكره إلا أنه قال يقيناً: تعطلتْ بنا السيارة في مكان يقال له "الجرارة" - تمَّ تغيير اسمها في الوقت الحالي- وكان معنا ريالات الفضة، كل كيس فيها خمسة آلاف، ومكثنا ثلاثة أيام نذهب ونرجع، وقد تركنا المال في السيارة المتعطلة لم نخش عليها؛ لما منَّ الله به علينا من أمن ضارب أطنابه في البلاد، وحكَّامٍ دفع الله بهم شروراً كثيرة، وكان يقول بالنص: (هذه البلاد قلب الإسلام وحرزه ... والحكومة السعودية خير حكومة على وجه الأرض، ولهذا يجب على كل مسلم في داخل البلاد وخارجها أن يدعو لها بالثبات والقوة في الحق، ونصرة المظلوم... وحكام هذه البلاد لا يشك منصف في الدنيا من المسلمين وغير المسلمين لا يشك أن ولاة هذه البلاد خير ولاة في بلاد العالم، لا يشك أحد في ذلك إلا

من كان ذا هوى لا إنصاف عنده أو كان جاهلاً لا يدري عن أحوال الناس).

وكان رحمه الله من أبصر علمائنا بالجماعات والفرق والأحزاب لمَّا أهديته نسخة من كتابي نقض كتاب "تحقيق المقال" في الرد على جماعة التبليغ، وكشف ما تجنَّاه المؤلِّف على علماء السنة، قال لي: اثْرك يا شيخ محمد لا تحب جماعة التبليغ؟ فقلت: نعم، علمتمونا السنة وبُغْض مخالفها، فقال: أنا أعرفهم من عام ١٣٧٤هـ في مسجد سكيرينة بالرياض، وحي العتيبية بمكة، وهو منحرفون عن السنة، ليسوا على منهاج النبوة، وعندهم انحرافات في المعتقد.

وقال لي أيضاً: أعرف جماعة الإخوان المسلمين وأنا طالب بكلية الشريعة عام ١٣٧٧هـ وقرأتُ جملة من رسائلهم كرسائل حسن البنا وغيره، وعرفتُ أنهم على ضلال وانحراف في المنهج منذ ذلك الوقت، وهم لا يهتمون بالتوحيد، وهدفهم الوصول إلى السلطة، فكان رحمه الله يحذِّر الناس من التأثر بهم، بَلْهَ الانخراط معهم، وكان

يرى أن توقيع البيانات للمطالبة بالدستورية نوع من أنواع الخروج عن جماعة المسلمين وعلى إمامهم، ويقول: هذه دعوة فتن.

وكان يحذِّر الشباب من الذهاب لمواطن الصراعات وأماكن الفتن التي وقعت في بعض البلدان، وقال في درسه الذي يقام في مسجده في تاريخ ٢٥/ ٥/ ١٤٣١: الجهاد الإسلامي لا وجود له في هذه الأزمان المتأخرة من عشرات السنين.

قال ذلك تحذيراً من تغرير دعاة الفتنة والحزبية لبعض الشباب بأن تلك الصراعات التي كانت هي جهاد إسلامي، فيغررون بهم ليذهبوا وقوداً في الفتنة.

ولما كنتُ طالباً في كلية الشريعة رأيتُ بعض الشباب يدعون إلى التجمع بعد صلاة الظهر في دار الإفتاء، وغداً عند مجلس القضاء الأعلى في زعمهم ليحرِّكوا المشايخ ويضغطوا عليهم في إنكار بعض الأمور!! فقال لي أحدهم: اليوم سيجتمع الشباب عند مجلس القضاء الأعلى فكن معنا! فقلت: ولم هذه التجمعات؟ فقال: لإنكار

المنكرات!! فقلت: عجيب هل هذه طريقة شرعية؟! ثم لمِ َسوء الظن بعلمائنا حتى تتجمهرون عليهم هكذا، كأنهم لا يبذلون النصح إلا بمثل هذه الأفعال التي لا تَحْسُن من الجهَّال فضلاً عمن يَنْسِبْ نفسه إلى العلم وأهله، فأنصحك يا أخي أن تترك هذه الطريقة، فأعرض عني مغضباً - وغضبه هنا أحب إليَّ من رضاه- ولم يسمع النصيحة، وقد أخبرني أحد الفضلاء أنهم لما تجمَّعوا عند مجلس القضاء الأعلى وكثروا، أُخْبر عنهم سماحة الشيخ صالح اللحيدان رحمه الله فخرج عليهم من مكتبه، وكان مما قاله لهم: هذا التجمع بدعوى إنكار المنكر يُذِّكر بتجمع الغوغاء على الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، فالطريقة واحدة والدعوى واحدة، ثم صرفهم الشيخ بعد أن دعا للجميع بالهداية.

وأذكر أن أحد دعاة الفتنة في وقت من الأوقات تجمهر حوله أناس كُثر في المسجد الحرام والناس ينظرون باستغراب ما هذا التجمع؟ وما سببه؟ وكان ذلك في ليلة من ليالي رمضان، وعَلِمَ الشيخ صالح بذلك وكان في الحرم، فما راع الناس إلا وسماحته يدخل بين الناس فانفرج

أمامه الطريق، وأخذ هذا الداعية بيده وجرَّه حتى أبعده عن مكان التجمع، والناس ينظرون، فصار يكلمه ثم انصرف، فتفرق ذلك التجمع.

إذا ما تَرَاءاهُ الرِّجالُ تحَفَّظوا ... فلم تُنْطَقِ العوراءُ وهْوَ قَريبُ

ولا أنسى أن بعض تلك الفرق الضالة والجماعات الخارجية كانت تهدد -زيادة عمَّا فعلتْهُ- بالإفساد في بلادنا واستهداف رجال أمننا بل وعلمائنا فضلاً عن ولاة الأمر، فذهبتُ إلى سماحته وذلك في عام ١٤٢٤هـ تقريباً طالباً منه أن يتخذ سبباً مباحاً زيادة في الحرص على سلامته، وقلت له: إنك يا شيخنا رأس من رؤوس السنة والإسلام في هذا الزمان، وعظيم من عظمائنا، فالتفت إليِّ وشكرني على خوفي عليه، ثم قال: قال صلى الله عليه وسلم لابن عمه رضي الله عنه: «اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»، فلا تخف ولا تقلق، فالله هو الحافظ سبحانه.

يصدق عليه ما وصف أبوفراس الحمداني نفسه بقوله:

صَبُورٌ ولَو لمَ تبْقَ مِنِّي بقِيَّةٌ ... قَؤُوْلٌ وَلَو أَنَّ الْسُّيُوفَ جَوَابُ

وَقُورٌ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَنُوشُنِي ... وَلِلْمَوْتِ حَوْلي جَيْئَةٌ وَذَهَابُ

سألته عن قول لبعض دعاة الفتنة تناقله شريحة من الشباب، فقال: هذا قول سوء! ثم قال: أقال به أحد؟ فقلت: نعم، اثنان؟ فقال: من هما؟ قلت: فلان وفلان، فلم يستغربه منهما، ثم قال: أما الأول ففيه خُبث، وأما الثاني فمسكين! وربما أحب الظُّهور والشهرة فضيَّع الحق.

وسبحان الله طال الزمان بهما فرأيتُ شاهد ما ذكره شيخنا فيهما، ومن المعلوم عند أهل السنة أن أهل البدعة والضلالة لا غيبة لهم، قال إبراهيم النخعي رحمه الله:(ليس لصاحب البدعة غيبة)، وقال الحسن رحمه الله:(ليس لأهل البدع غيبة)، وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله:(فلا بد من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم).

كان رحمه الله يعرف القضاة كبيرهم وصغيرهم، ويعرف العامل منهم، والجاد في عمله، وكان يبادر بوأد الكلام حول القاضي بإصلاحه بما يراه مناسباً، ولا يقبل الطعن فيه، ولا التشويش ولو يسيراً على الجهة القضائية، بل كان المحامي لها، المدافع عنها، يعالج الموضوع بتروٍ تام ونظر متكامل، وما كان بحاجة إلى حسمٍ حسمه في وقته؛ لأن التأخر في الأمر قد يفسده.

فقد كان في صَدرِ المَجالس بهجةً ... به تحْدِقُ الأبصارُ والقلبُ يَرهبُ

وكان يحث القضاة على الاحتساب في أعمالهم، وأن يتقربوا بذلك لله، وأن يصبروا على القضاء لوجهه سبحانه، وكان يذكِّرهم بعظيم منزلتهم، وعلو منصبهم، وخطورة عملهم، وأن القضاء أحد المقامات التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلها بنفسه، فالقضاة ورثة للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام، وكان يحثهم على الانضباط في العمل وعدم التأخر عنه، بل حدثني أحد قضاة الاستئناف أنه ذهب وزميله إلى الشيخ صالح اللحيدان للسلام عليه حين قدم الطائف وقت الصيف باعتبار أنه شيخهم ورئيسهم وقد قدم من سفر فله حق السلام،

لاسيما أنه سيستقر مدة الصيف في الحجاز كما جرت العادة حين ينتقل مجلس القضاء الأعلى بأعماله إلى الطائف في عطلة الصيف، يقول: نوينا أن نصلي مع سماحته الظهر ثم نسلم عليه، ولعلنا بادرنا الوقت فوصلنا المجلس قبل أذان الظهر بنصف ساعة تقريباً فدخلنا على سماحته فرحَّب بنا وأكرمنا ثم قال: ما عندكم؟ فأجبناه: إنما هو السلام عليكم والتحمُّد لله على سلامة وصولكم، فقال الشيخ: تركتم أعمالكم لتسلموا عليَّ! فشكرهم ثم قال: قوموا إلى أعمالكم جزاكم الله خيراً وأعانكم.

كان رحمه الله كبير النفس، واسع القلب، قد سامح وحلَّل كلَّ من تكلَّم فيه وأساء إليه طلباً في تعويض الله وثوابه وطمعاً في عطائه سبحانه، فعطاء الله لا يُقدَّر بالحسنات التي تؤخذ من العبد وتعطى لمن اغتابه، إلا من كان سيِّئاً واستمر على السوء، فيرجو الشيخ من الله أن يحاسبه لا أن يُؤْخذ له من حسناته.

كان سماحته رحمه الله عالماً بالأنساب، عارفاً بالأسر والقبائل، واسع الاطلاع في ذلك، وجدتُ يوماً عنده رجلاً من سدير من أحد العوائل

فلما ذهب قال لي: هذا من دياركم، فقلت: نعم من المجمعة، فقال: عندكم ثلاث عوائل تحمل الاسم نفسه، الذين في المجمعة من "عَنَزة"، وهذا منهم-يشير إلى الرجل الذي ذهب-، وفي بلدة التويم من قبيلتك من"تميم" ويشير إليَّ، وفي بلدة الروضة وهم من "الدواسر".

وجاءه أحد المشايخ من حوطة بني تميم في موضوع يخصه، فلما دخل على سماحته قال له: أنت من جماعة الشيخ فلان؟ فقال: لا، فهو من "أسفل الباطن"، فقال الشيخ مباشرة: أأنت من الحلوة أو القويع؟ "إذ لقب أسرته موجود هنا وهنا" ثم قال له سماحته: على كل حال كلكم أبناء عم، وأصلكم واحد.

فانظر إلى معرفته بتفاصيل الأسر، وكيف يعرف أن منازلهم في هذا المكان أو هذا المكان دون تسمية بقية الأماكن التي حولها.

لقد كانت لسماحته المنزلة العالية عند مفتي الديار النجدية الشيخ محمد بن إبراهيم رحمهما الله حتى قال: (دامت الخلطة بيني وبينه

سنين، من حين عملت عنده في الإفتاء في وظيفة أمين، إلى أن توفاه الله)، وقال: (في أوائل سنة ١٣٨٠ تعينتُ مع سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمة الله عليه سكرتيراً له في الإفتاء، وبقيت معه.

وكنتُ - والحمد لله والمنة والفضل له - محل الثقة وتقديرهم واحترام رأيهم، وفي عام ٨٣ نقلني -رحمة الله عليه- إلى محكمة الرياض؛ ليهيئني لرئاستها، وذلك في أول رجب عام ٨٣ وجلستُ فيها، وفي أوائل عام ٨٤ توليتُ رئاسة المحكمة، وبقيت فيها إلى ٥ محرم عام ٩١ ثم انتقلت إلى الهيئة القضائية العليا وتحولت فيما بعد إلى مجلس القضاء الأعلى، واستمررتُ في هذا العمل في حياتي القضائية في الإفتاء وفي القضاء بما يتجاوز ٥٠عاماً).

وقد ذكرتُ طرفاً من علاقة شيخنا صالح بسماحة شيخه محمد بن إبراهيم رحمهما الله في مقال عن الشيخ محمد بن إبراهيم نُشِرَ قبل مدة.

ومما حدثني به رحمه الله أنه كان يقرأ المعاملات على مفتي الديار الشيخ محمد بن إبراهيم، قال الشيخ: كنتُ أُسْرِعُ في قراءة المعاملة، فسمعتُ الشيخ محمد بن إبراهيم يتمثل بيتاً لكعب بن زهير معلقاً به على سرعة القراءة:

تخْدِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهْيَ لاحِقَةٌ ... ذوابِلٌ وَقْعُهُنَّ الأرضَ تحَلِيلُ

أي: عدْوُهُنَّ - أي الإبل- سريع، فكأَنَّ أخفافهنَّ لا يُصِبْنَ الأرض من شدة سرعتها وخفتها إلا بقدر تحليل القسم!

ومما أذكره هنا ما قاله لي شيخنا العلامة عبدالله الغديان رحمه الله قال: (الشيخ صالح قليل جنسه، وقد تفرَّس فيه الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله وقرَّبه، ومكَّنه، فجعله عنده في مكتبه ثم رئيساً لمحكمة الرياض، وصدقت فراسة الشيخ محمد فيه، وهذا الشيخ صالح منذ عرفته هو هو لم يتغيَّر، وهو من أحبِّ المشايخ لي، وأقربهم إلى قلبي).

كان الشيخ صالح اللحيدان يحبُّ الشيخ عبدالله الغديان حُباً كبيراً بل قال: (أعزُّ أصدقائي ثلاثة: الشيخ عبدالله الغديان، والشيخ محمد بن سليمان البدر، والشيخ عبدالمحسن العباد، وكلهم من الزلفي).

وعلى ذكر الشيخ عبدالله الغديان رحمه الله فإني قد طلبتُ منه الشفاعة عند الشيخ صالح لإعفائي من القضاء، فقال: لو تقول للشيخ صالح يجعلك عنده في مجلس القضاء، فقلت: شيخنا لو تكلمونه لكان أوقع للكلام، فقال: اذهب إليه وقل أرسلني فلان! فقلت: طيب إن شاء الله، وذهبتُ إلى المجلس الأعلى للقضاء، فانتظرتُ يسيراً حتى أَذِنَ الشيخ صالح بالدخول عليه، فدخلتُ مع ثلاثة من القضاة أعرف بعضهم وهم لا يعرفونني حينها يقيناً، سلَّمنا على الشيخ وأخذ كل منَّا مجلسه، وكنتُ آخرهم دخولاً ومجلساً بل جعلتُ بيني وبين أدناهم فراغاً بمقدار ما يكفي رجلين، فبعد التحية بينهم وبين سماحته، سألهم الشيخ، فمال أحدهم برأسه إليَّ ينظر! كأنه يقول للشيخ لو تُخْرِج هذا أو تنهي موضوعه قبل حديثنا، فقال الشيخ: هذا منَّا وفينا فاطمئن، ولن يستمع إلى حديثكم، فلما بدأ الكلام بينهم زدتُ في البعد عنهم كذلك

قرابة كرسيين وأبعدتُ نظري وأشغلتُ نفسي، فلا أعلم حتى هذه اللحظة ما موضوعهم ولا ما حدَّثوا الشيخ به، خرجوا من المجلس فاقتربتُ من الشيخ، فطلب القهوة! وصار يتحدث رحمه الله عن أمور منها: حديثه عن شيخه عبدالرحمن الكريديس أنه أستاذه في تعلم قراءة القرآن وحفظه، وأنه معدود في الفقهاء، ثم ذكر رجلاً صالحاً من عائلة المحمود أمضى قرابة ستين سنة أو تزيد يرفع النداء إلى الصلاة في البكيرية، ثم قلت له بعد ذلك ما قاله لي الشيخ عبدالله الغديان، فسكت قليلاً ثم قال: سيفتح علينا هذا الفعل باباً مغلقاً.

تأملتُ فعله رحمه الله في إبقائي في المجلس مع خصوصية ما يريده أولئك الثلاثة، وطلبه القهوة بعد خروجهم ثم حديثه، مع ما علمه القاصي والداني من حزمه وعزمه رحمه الله، فقلتُ: لعل من مقاصد فعل الشيخ ترغيبي للبقاء في القضاء، وهذا من رفيع حسِّه، ووجه من وجوه حزمه.

رَزِينٌ إِذَا مَا القَوم خَفَّت حُلُومُهُم ... وَقُورٌ إِذَا مَا حادِثُ الدَّهرِ أَجلَبَا

فَتَى لمْ يُضَيِّعْ وَجْهَ حَزْمٍ وَلم يبتْ ... يُلاحظُ أعجازَ الأُمُورِ تَعَقُّبَا

إذا هَمّ لمْ يَقْعُدْ بِهِ العَجْزُ مَقعَداً ... وإنْ كَفَّ لم يَذهَبْ بِهِ الخَرْقُ مذهَبا

قلت لسماحته في إحدى المرات: يا شيخنا لن أذهب لمباشرة القضاء، وعندي طلب! وهو أن لا تستاء من فعلي، ولا تغضب من تصرفي! فقال: لا، ولو كنتَ أحد أبنائي ما زعلتُ، ولا غضِبتُ، فقلت: جزاكم الله عني خير الجزاء.

فربما جئتُه في الصباح في مجلس القضاء طالباً للإعفاء، وفي المساء للنهل من علمه، فتعامله في النهار تعامل رئيس المجلس الناظر في المصالح، وفي المساء تعامل العالم الباذل لعلمه ونفسه لجميع الناس.

يا حبَّذا أَزْمنٌ في ظلِّهم سلفتْ ... ما كان أقصرَها عُمراً وأحلاها

أوقاتُ أُنْسٍ قضيناها فما ذُكرتْ ... إلا وقطَّع قلبَ الصَّبِ ذِكْراها

قصدته مرة وقد نزل علينا غيثاً عاماً ومطراً طيباً، والأرض قد ارتوت، وكان الجو عليلاً لطيفاً، فلما أوقفتُ سيارتي عند منزله من الجهة

الشمالية ونزلت منها متوجهاً إلى المسجد، وذلك قبل الأذان بقليل، إذ بالشيخ رحمه الله يخرج من منزله، فيممت وجهي إليه لأسلم عليه وقبَّلت رأسه، فقال مرتجزاً:

وابنُ فُرَيْحٍ فَرِحٌ ... بالغَيْثِ لمَّا نَزَلا

فقلت: إي والله فرح بالغيث وبرؤيتكم شيخنا، وكان ذلك في ٢/ ٢/ ١٤٣٤هـ .

ذهبتُ معه رحمه الله إلى بلدة تبعد عن الرياض أكثر من مائة وعشرين كيلاً؛ ليلقي محاضرة على أهلها، وكان حينها قد بلغ من العمر خمسة وثمانين سنة!

سألته عمن يُصدِر بياناً من طلبة العلم وهو ما زال في سن الشباب إلى أهل دولة من الدول أو إلى الشعب الفلاني في بعض الأمور العامة في بلادهم؟ فقال: من أي بلد هو؟ قلت: من المملكة من الرياض؟ فقال: هل يعرفونه أهل الرياض! وهل عَلِمَ عنه أهل تلك البلاد! أو التفتوا إليه، ثم قال: قل له: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، ثم هو إن كان لأجل

أن يُعْرف وأنه أصدر البيانات وناصح الشعوب، فنيَّته فاسدة، وعمله ضائع، وهو مسكين في الحقيقة، وإن كان يريد النفع فليعلِّم من حوله، وليدع القوس لبارئها.

لما صار الحديث الكلام مرة في مجلسه رحمه الله عن الإرهاب قال: أول من كتب عن خطر الإرهاب عندنا هو الشيخ زيد المدخلي رحمه الله، وقد أحسن فيما كتب، وقد سبق غيره، فقد كتبه قديماً، وذكر أضراره على الفرد والمجتمع.

كان الشيخ رحمه الله من أوائل من أفتى بتحريم المظاهرات، وأنها فوضى ، وقال: إن كان فيها سفك دماء فهي من أكبر المحرمات.

كان رحمه الله متجلداً صَلْباً ثابتاً في الملمات لا تُضَعْضِعه الحوادث، ولا تُزعزعه العواصف، ولا تُرهِق كاهله النوائب، فكأنَّه القائل:

وَتجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنيِّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

حَتَّى كَأَنيَّ لِلْحَوَادِثِ مَرْوَة ... بصَفَا المُشَقَّرِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

وكان رحمه الله مُوطِّنٌ نفسه، يوصي بالصبر على ضربات الزمان ونكباته، وربما تمثَّل بقول الشاعر:

ولا خَيْرَ في مَنْ لا يُوَطِّنُ نفسَه ... على نائِباتِ الدَّهْرِ حينَ تَنُوبُ

توفيتْ والدته رحمها الله وهو في العاشرة من عمره تقريباً، قدم الرياض مع والده رحمه الله عام ١٣٦٧هـ، دَرَسَ في المعهد العلمي ثم التحق بكلية الشريعة وتخرج فيها عام ١٣٧٩هـ، ثم المعهد العالي للقضاء وقدَّم بحثاً عنوانه(الإقرار في الشريعة الإسلامية)، كما له كتابة قد ملئتْ علماً عنوانها(الأحكام المتعلقة بالهلال) جاء فيه(وقد رأيت إعادة نشر المقال استجابة لأمر شيخنا ووالدنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وتلبية لرغبة زميلنا العزيز الدكتور محمد بن سعد الشويعر رئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية)، وقد نشر في مجلة البحوث الإسلامية عدد(٢٧).

وعلى ذكر سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله، فقد كان سماحته دائم المشاورة للشيخ صالح، بل كان يكتب إليه في طلب رأيه في تعيين بعض العلماء في هيئة كبار العلماء، فإذا أشار بهم الشيخ صالح رفع الشيخ ابن باز الاقتراح إلى مقام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله.

وكان الشيخ صالح اللحيدان له منزلة كبيرة جداً لدى الملك فهد رحمهما الله، فله عنده القدر العالي، والمقام السامي، والقدح المعلى.

دعوتُ سماحة الشيخ إلى حفل الزواج وكنتُ حينها في الملازمة القضائية فقال: إن كنتُ في الرياض فلن أتأخر بإذن الله، وفعلاً شرَّف حفل زواجي رحمه الله، ولما رأيته تقدَّمتُ إليه فدعا لي وأكثر، وطلبتُ منه أن يجلس مكان العريس فرفض، فكنتُ عن يمينه ووالدي حفظه الله عن يساره.

حَلَفَ الزَّمَانُ ليَأْتينَّ بِمِثْلِهِ ... حَنِثَتْ يمِينُك يَا زَمَانُ فَكَفِّرِ

لقد أمضيتُ أكثر من عشرين سنة في التردد عليه، والرجوع إليه، والحضور بين يديه، ومشاورته في أمور كثيرة، كنتُ قد جعلته أباً قبل أن أكون بين يديه تلميذاً، أُحدِّثه لأسمع منه، وأُخْبره لأتعلم، لم يتبرم أو يظهر عليه أثر السخط من أي سؤال مع كثرة الأسئلة.

أخبرته برؤياي له في المنام قبل وفاته بسنتين وتكررتْ عليَّ الرؤيا مرتين فذهبتُ إليه، وكان على العربة في مكانه المعهود خلف الإمام، فسلمت عليه بعد الصلاة، ثم قلت: أحسن الله إليكم سماحة شيخنا لقد رأيتكم في المنام مرتين في أسبوع واحد وفي هذا المسجد، والرؤيا واحدة والسؤال الذي جاء في الأولى هو نفسه في الثانية، وجوابكم عن السؤال فيهما واحد، وقد تعجَّبتُ من تكررها! رأيتُ أني سألتكم فيها هل أجازكم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في الحديث؟ فكان جوابكم: لا لم أطلب منه ولم يجزني، فقال الشيخ: صحيح لم أطلب منه ولم يجزني، ثم قال: رحم الله الشيخ ما أطيبه وما أحسن ذكراه.

لئن غاب عن العين فهو في القلب حاضر، لقد كان زينة المَجَالِس، وأُنس المُجَالِس، أحبَّ الخير للناس وبذله لهم فأحبه الناس، لما سمعوا بمرضه تواصوا بالدعاء له، ولما بلغهم خبر وفاته حزنوا وأكثروا من رجاء الله أن يرحمه، ويعلي منزلته، صُلي عليه صلاة الغائب في بعض البلدان الإسلامية وغيرها، وتناقل الناس بعض كلامه، واجتهدوا في بثها بينهم، وتزاحموا على جنازته، وتكاثروا على قبره، فلم أستطع الوصول إلى قبره للمشاركة في دفنه، بل لم أغادر المقبرة إلا وطَوَّحت الشمس للمغيب، والناس ما زال زحامهم على قبره يدعون له!

عليكَ سلامُ الله وقْفًا فإنَّني ... رَأَيْتُ الكريمَ الحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

لما بدأ رحمه الله في علاج المرض الذي أصابه -جعل الله ما نزل به رفعة لدرجاته- ربما مرت عليه بعض الأيام يصلي صلاة الجمعة دون غيرها تقريباً فكان لا يتيسر لي اللقاء به لارتباطي بجامع ليس قريباً من مسجده، فاتصل بي أخي الشيخ العزيز أبوخالد محمد بن سليمان البريه يوم أربعاء وكان من حديثه: إني كُلِّفتُ بالخطابة في جامع الشيخ

صالح اللحيدان الجمعة القادمة! فقلت: رحمك الله بلِّغ سماحته سلامي ومحبتي وعظيم شوقي إليه، فقال: أبشر، وبعد الجمعة اتصل بي الشيخ محمد وقال: الشيخ صلى معنا فقمتُ إليه بعد الصلاة مغتبطاً برؤيته مسلِّماً عليه، ثم بلَّغته سلامك ومحبتك ودعاءك، فابتسم الشيخ لما قلت اسمك ابتسامة المحب، وقال: بلِّغ الشيخ محمداً محبتي ودعائي وتقديري.

لَكَ في الحَشى قبرٌ وإِنْ لم تَأوِهِ ... ومن الدُّموعِ روائِحٌ وغَوادي

جبلٌ هوى لَو خرَّ فِي البحرِ اِغْتَدى ... من وَقْعِهِ مُتَتَابعَ الإزباد

لَيْسَ الفجائِعُ بالذَّخائِرِ مثلَها ... بأماجِدِ الأَعيانِ والأَفْرادِ

قال أحدهم لسماحة الشيخ صالح اللحيدان رحمه الله لو تطبعون دروسكم ومحاضراتكم فهذا الشيخ العلامة عبدالله الغديان مات رحمه الله ولم يُخلِّف كتاباً مطبوعاً من شروحه أو تأليفه، فأجابه الشيخ: لكنه خلَّف الذكر الحسن.

لما قيل له: متى نرى ونفرح بفتاوى سماحتكم مطبوعة، قال رحمه الله: (إذا قرأتم المطبوعات كلها أسعى أن تطبع! ونصيحتي أن تكثروا من قراءة الأحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم، هذا هو العلم الصحيح، كما يقول العلماء السابقون، قال ابن القيم:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو التبيان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين قول فلان

فالعلم الحقيقي ما قاله الله وقاله رسوله، لكن ينبغي للواحد أن يعرف معاني ما قاله الله وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم).

لقد أثنى العلماء على سماحته رحمه الله في حياته وبعد وفاته، قال سماحة شيخنا العلامة صالح الفوزان حفظه الله وبارك في عمره: (الشيخ صالح بن محمد اللحيدان عالم جليل، وهو من أكبر علماء هذه البلاد، فهو عضو من أعضاء هيئة كبار العلماء منذ أنشئت هذه الهيئة في عهد الملك فيصل رحمه الله، وهو تلميذ المشايخ الأجلاء، وخريج كلية الشريعة، وخريج المعهد العالي للقضاء، ولاه الشيخ

محمد بن إبراهيم رحمه الله بعد تخرجه عضوية الإفتاء فكان ملازمًا له في حياته ثم ولاه رئاسة المحكمة الشرعية بالرياض، ثم بعد ذلك صار عضواً في الهيئة القضائية العليا، ثم صار عضواً في المجلس الأعلى للقضاء، ثم عينه الملك فهد رحمه الله رئاسة هذا المجلس، واستمر في ذلك إلى أن تقاعد رسمياً، وكان محمود السيرة، حازماً في جميع أعماله، مسدداً في آرائه وأحكامه، ومع أعماله الرسمية الجليلة كان مشاركاً في برنامج نور على الدرب منذ أنشئ إلى جانب مشاركاته في الدعوة إلى الله بإلقاء المحاضرات وإلقاء الدروس في المسجد الحرام، وفي غيره من المساجد، مع الإجابة على أسئلة المستفتين في كل مكان يوجد فيه).

وقال الشيخ الزاهد سعد بن عبد الرحمن الحصين رحمه الله: (أحد كبار ولاة الأمر بالعلم والعمل، وهو من أوائل المفتين في هذه البلاد والدولة المباركة قبل أن يرأس مجلس القضاء الأعلى، ومن أكبر وأعلم كبار العلماء فيها، وهو من خير من يعمر المسجد الحرام

بدروسه المباركة الشاملة ما أمكنه ذلك، ومن خير الدعاة إلى الله على منهاج النبوة).

وقال معالي الشيخ عبدالله المنيع حفظه الله:(سماحة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان زميلنا وأخونا رحمة الله عليه لا شك أننا فقدنا أعزَّ حبيب إلينا، وأعزَّ من يجاهد في سبيل إعزاز هذا الدين وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، والعناية بما يتعلق بالأمور الشرعية فيما يتعلق بالجانب العدلي، والجانب القضائي، والجانب الإفتائي، والجانب العلمي، في الحقيقة أننا فقدنا عالماً كبيراً له قيمته واعتباره، نحن في أمسِّ الحاجة إليه وإلى أمثاله، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتغمده برحمته وألا يفتنا بعده، وأن يعوض بلادنا بمن فيه الخير والبركة، كان له مجهود عظيم في سبيل تقويم وتكوين مجلس القضاء الأعلى حيث كان ميزان عدل، وكان معياراً لتقويم مجموعة كبيرة من رجال العلم ورجال القضاء، ووزارة العدل فيها مجموعة كبيرة كلهم أو غالبهم من تلاميذه ومن نتيجة توجيهاته الكريمة، نسأل الله تعالى أن يعظم أجره، وأن يرحمه رحمة واسعة، وإنا لله وإنا إليه راجعون).

إيه يا نفس هذه مصابيح العلم كل يوم في نقص، وربما ضاعت الأوقات على ثمن بخس!

لما بدأ الناس يهيلون التُّرب على قبر شيخنا رحمه الله تذكرتُ قول حبر الأمة رضي الله عنه لما قام على قبر زيد بن ثابت رضي الله عنه بعد دفنه قال: هكذا يذهب العلم.

إي والله هكذا يذهب العلم، فما أحوج طلاب العلم إلى الجدِّ في طلبه، والسعي في تحصيله، خاصة علم التوحيد، فإن الفتن كثرت وتنوعت وتشعَّبت، والناس بحاجة ماسة وملحَّة إلى العلم النافع وأهله، وبثه بينهم وتداوله، والعلم إنما يُتلقَّى من الشيوخ، ليس مجرد قراءة الكتب والبحث والنظر فقط، بل هو سلسلة من التَّلقي مترابطة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وسماحة شيخنا رحمه الله له اختيارات فقهية كثيرة، وترجيحات معتبرة، يحسن جمعها ودراستها في رسائل علمية، وله جهود دعوية

مباركة، وكان رحمه الله على قانون السلف الصالح عقيدة وفقهاً ومنهجاً.

فرحم الله سماحة شيخنا صالح اللحيدان وجعل الفردوس مأواه، وعوَّض أمة محمد خيراً، وشكر له عمله وجهاده وجعلها كلها في ميزان حسناته، وأحسن العزاء فيه لولاة الأمر والعلماء وطلاب العلم والقضاة والمسلمين، وممن أخصه بالعزاء أولاده الكرام النبلاء، وأهل بيته، وطلابه، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد الله على قضائه وقدره.

لما مات أبوعبدالله محمد بن عمر بن لُبَابة وهو من علماء الأندلس، تزاحم الناس على نعشه وقبره، فقال أبوه: لو تزاحموا على علمه، لا على نعشه!

تم في ظهر يوم الثلاثاء ٨/ ٦/ ١٤٤٣هـ - الرياض